النشـــــــــــــرة

تصـــدرها مطـــرانية الـــروم الأرثوذكـــس في بـــيروت

العدد ٤١ / ٢٠٠٠
الأحد ٨ تشرين الأول

تذكار أمنا البارة
بيلا جيا

اللحن السابع
إنجيل السَحَر الخامس

الـــرســـالـــة (كورنثوس ٦ : ١ ١٠)
الإنـــجـــيـــل (لوقا ٧ : ١١ -١٦)

+ القديسين أندرونيكوس وأثناسيا

تُعيِّد الكنيسة المقدسة في التاسع من تشرين الأول لتذكار القديسين البـــارين أندرونيكوس (مظفر) وزوجته أثناسيا (خالدة)، اللذين عاشا معاً في العفة والصـــلاة والتقشف وتركا كل ثروات الأرض لينالا الكـــنز الـــذي لا يفســـد فـــي ملكـــوت السموات.

عاش أندرونيكوس وأثناسيا في مدينة إنطاكية في القـــرن الرابـــع، ويقـــول البعض في القرن السادس. كان أندرونيكوس يتعاطى مهنة صياغة الذهب والفضـــة ويُعتبر من الأغنياء بماله وفضائله المسيحية. ارتبط بأثناسيا بسر الزواج المقـــدس

وعاشا معاً بخوف الله وبحسب وصاياه. قسَّم أندرونيكوس أمواله ثلاثة أقسام متساوية: القسم الأول وزَّعه على الفقراء والبائسين والثاني أعطاه قروضاً للمحتاجين إنما دون فائدة أو ربى، والثالث احتفظ به لتسيير صناعته وتأمين معيشته مع زوجته، وقد باركه الله وضاعف أمواله.

رزق الله أندرونيكوس وأثناسيا صبياً وبنتاً، ثم قررا العيش كأخ وأخت، وعملا على تربية ولديهما تربية مسيحية صالحة.

افتقد الله هذه العائلة المباركة بعد إثنتي عشرة سنة وتوفي الولدان. ارتضى أندرونيكوس بحكمة الله وقال مع أيوب: «الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً» (أيوب ١:٢١). أما أثناسيا فلم يكن يعزيها شيء، حتى تعزية البطريرك الإنطاكي، وكانت تخرج كل يوم إلى قبر ولديها قرب كنيسة القديس يوليانوس، مردّدة انه ينبغي أن تُدفن قرب ولديها.

في إحدى الليالي، فيما كانت قرب المدفن، ظهر لها القديس يوليانوس بثياب راهب وسألها عن حزنها، فأخبرته بموت ولديها، فقال لها أن لا تحزن كأهل الأرض لأن ولديها في ملكوت السماء يتمتعان بخيرات المسيح والحياة الأبدية. تحوَّلت دموع أثناسيا إلى فرح، ولما أرادت أن تتكلَّم مع الراهب من جديد اختفى من أمامها فأيقنت ان من ظهر لها هو القديس يوليانوس.

هذه الحادثة كانت حافزاً لأندرونيكوس وزوجته للزهد في هذه الدنيا وطلب الحياة الرهبانية. فأعتقا عبيدهما ووزَّعا باقي أموالهما وقصدا الأماكن المقدسة للتبرك والحج. لما خرجا صلَّت أثناسيا إلى الرب كي يفتح لهما أبواب الملكوت كما حصل مع ابراهيم وساره في العهد القديم اللذين تركا بيتهما وسارا في الطريق إلى الأرض التي أرشدهما إليها الله.

بعد زيارة الأماكن المقدسة في أورشليم انطلقا إلى برية مصر حيث الأنبا دانيال الذي أرسل أثناسيا إلى دير للراهبات في تبنيسي في صحراء مصر وأبقى أندرونيكوس معه، تحت إرشاده الخاص. وقد أثبتا، كلاهما، نموّهما في الحياة الروحية، وبقيا كلٌ في مكانه طيلة إثنتي عشرة سنة لم يريا خلالها بعضهما، وقد بلغا درجات سامية في الفضائل الروحية.

بعد مرور هذه المدة توسَّل أندرونيكوس إلى الأنبا دانيال أن يسمح له بزيارة الأماكن المقدسة ثانية، فسمح له. وبتدبير إلهي كانت أثناسيا قد انطلقت لزيارة الأماكن المقدَّسة. ولأنها خافت أن تسافر كامرأة لوحدها، تزيّت بثياب

الرهبان واتخذت اسم اثناسيوس. في الطريق التقيا، عرفت أثناسيا أندرونيكوس ولم يعرفها هو بسبب ثيابها وبسبب نحولها واسوداد بشرتها. بعد تبادل التحية قررا السير معاً نحو أورشليم شرط المحافظة على الصمت طوال الوقت. هكذا زارا الأماكن المقدسة وعادا دون أن يتلفظا بكلمة واحدة. وكان أندرونيكوس يظن ان من معه هو الراهب أثناسيوس. ولما وصلا إلى برية مصر سأل أثناسيوس أندرونيكوس إن كان يود أن يشاركه قلاية منفردة في الصحراء قرب الإسكندرية. طلب أندرونيكوس استشارة الأنبا دانيال الذي منحه البركة. وهكذا عاش الزوجان معاً من جديد ولكن لا كزوجين، بل كراهبين، ودون أن يتعرف أندرونيكوس على زوجته ودون أن تفصح له عن هويتها الحقيقية.

انقضت إثنتا عشر سنة أخرى وبقي أندرونيكوس يظن انه يعيش مع راهب وليس زوجته. وكان الأنبا دانيال يزورهما دوماً ويزودّهما بإرشاداته ويناولهما الأسرار المقدسة. وبعد إحدى الزيارات انطلق الأنبا دانيال عائداً إلى ديره، لكن أندرونيكوس لحق به قائلاً له أن أثناسيوس ضربته الحمى وأحسَّ بساعة الموت. عاد الأنبا دانيال ورأى أثناسيوس على شفير الموت يذرف الدموع. فقال له دانيال «عليك أن تفرح لأنك ماضٍ إلى الملكوت». أجاب أثناسيوس: أنا أبكي لأجل أندرونيكوس، وأعطاه ورقة طلب منه أن لا يقرأها إلا بعد مماته، ثم تناول القربان المقدَّس ورقد بالرب.

حضر الرهبان لدفن أثناسيوس فاندهلوا لاكتشافهم بأن أثناسيوس هو أثناسيا. عندها قرأ الأنبا دانيال الورقة التي معه، وفيها كتبت أثناسيا إلى زوجها أندرونيكوس: «إني أنا أثناسيا قرينتك، ولأجل ملكوت السماء ما أعطيتك عن ذاتي إشارة، ولا كلمة واحدة». ثم حمل الرهبان الجسد الطاهر على سعف النخل، وهم لابسون حللاً بيضاء ودفنوه.

أراد الأنبا دانيال إعادة أندرونيكوس معه إلى الدير لكن أندرونيكوس طلب البقاء في القلاية قرب مدفن أثناسيا.

لم يمضِ على وفاة زوجته ثمانية حتى أصابته الحمى. عاد الأنبا دانيال وصلَّى لأجله وناوله جسد الرب ودمه، وما لبث أن فارق الحياة. أراد الرهبان أن يدفنوه كلٌ في ديره. إلا أن الأنبا دانيال أشار عليهم بدفنه قرب زوجته. وهكذا كان، وانضم أندرونيكوس إلى رفيقة حياته في الأخدار السماوية. فبشفاعتهما أللّهم ارحمنا وخلّصنا آمين.

«خالق السماء والأرض»

«هكذا يقول الرب فاديك وجابلك من البطن. أنا الرب صانع كل شيء، ناشر السموات وحدي، باسط الأرض. من معي؟... أنا صنعت الأرض وخلقت الإنسان عليها. يداي أنا نشرتا السموات وكل جندها... هل يوجد إله غيري. ولا صخرة، لا أعلم بها» (اشعياء ٤٤: ٢٤؛ ٤٥ :١٢؛ ٤٤ :٨).

تُعلم الكنيسة المقدسة ان الله الواحد الضابط الكل هو «خالق السماء والأرض وكل ما يُرى وما لا يُرى». إنه خالق كل العالم المنظور والعالم غير المنظور. خالق العالم الروحي (الملائكة) والعالم المادي (الشمس والنجوم والأرض وكل ما يوجد فيهم)، وخالق الإنسان (جامع المادة والروح). كل شيء خُلق بالآب عبر الابن في الروح القدس. «أنت يا رب في البدء أسست الأرض والسموات هي عمل يديك» (عبر١:١٠).

الخلق هو أن تصنع أو تعمل شيئاً من لا شيء، من العدم. أن تجلب إلى الوجود ما لم يكن موجوداً، وبحسب ما جاء في قداس القديس يوحنا الذهبي الفم «يا من أخرج كل الأشياء من العدم إلى الوجود».

الله وبحسب تعليم الكتاب المقدس والعقيدة الأرثوذكسية أخرج كل شيء وكل إنسان من العدم إلى الوجود. والدة الفتية المكابيين السبعة كانت تقول لابنها: «أتوسل إليك يا بني أن تنظر إلى السماء والأرض وكل ما فيهما وتعترف بأن الله لم يعملها من أشياء موجودة» (٢ مكابيين ٧: ٢٨)، أي ان الله أوجدها من العدم، من لا شيء. والعهد الجديد يعلّمنا: «بالإيمان نفهم ان العالمين أُتقنت بكلمة الله حتى لم يتكوَّن ما يُرى مما هو ظاهرٌ» (عبر١١:٣). كل شيء عُمل بكلمة الله من لا شيء.

إذاً الله أوجد كل شيء وكل حي من العدم إلى الوجود. الوصف الكتابي للخلق نجده في الإصحاح الأول من سفر التكوين. نُذكِّر هنا بما قلناه سابقاً، ان سفر التكوين لا يقدم قصة **علمية** للخلق، إنما يقدم قصة لاهوتية هدفها الأساسي أن تعلّمنا ان الله وحده غير مخلوق ولا بدء له ودائم الوجود، وان كل شيء آخر موجود قد خلقه الله. لم يخلق الله كل شيء دفعة واحدة وكلاً على حدة. خلق أول أساسات الوجود ومع الزمن أنتجت هذه الأساسات، وبقدرة وضعها الله فيها، باقي مخلوقات الله «... لتنبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزراً وشجراً

لتفض المياه زحافات ذات نفس حيَّة لتخرج الأرض ذوات أنفس حيَّة كجنسها» (تكوين ١: ١١ و٢٠ و٢٤). هذه الأساسات كما ذكرنا أنتجت مع الزمن، وربما خلال ملايين السنين، وما زالت تُنتج، إذ من يتابع الاكتشافات العلمية يعلم ان العلماء استطاعوا أن يروا منذ مدة قصيرة، بواسطة التلسكوب العملاق هابل، على بعد ملايين السنين الضوئية، سُحباً تسبح في الفضاء شبيهة بتلك السحب الهيدروجينية التي تكوّنت منذ مليارات السنين والتي تفاعلت وأنتجت الكون الذي نعيش فيه. إذاً، علمياً، قد نتوقع نتاجات جديدة، خلقاً جديدة، في الكون الذي يضبطه الله. هذا ما يعنيه قول الكتاب «أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل» (يو ٥:١٧) أي ان عمل الله لا يتوقف. بالطبع الله هو خالق كل شيء، إلا انه يعمل تدريجياً في الزمن وبوسائل وأشياء صنعها هو وأعطاها قدرة إعطاء الحياة والإنتاج. خلق الإنسان وأعطاه قدرة الإنجاب والخلق و«قال لهم أثمروا واكثروا واملأوا الأرض» (تكوين ١:٢٨). وهكذا صار الإنسان مشاركاً لله في الخلق. وهذه صورة الله ومثاله في الإنسان: الخلق.

أيضاً، وبحسب التعليم الأرثوذكسي، فإن الله يصنع كل الموجودات بواسطة **كلمته الإلهي** (الابن) «وقال الله ليكن فكان» **وروحه الإلهي** الذي كان «يرف على وجه المياه» (تكوين ١:٢). «بكلمة الرب صُنعت السموات وبنسمة (روح) فيه كل جنودها لأنه قال فكان. هو أمر فصار» (مزمور ٣٣: ٦ و٩). نرى في هذه الكلمات إشارات إلى الثالوث الأقدس الذي يتجلّى بأجلى بيان في العهد الجديد مع تجسد الكلمة، الابن، وحلول الروح القدس على تلاميذ يسوع يوم العنصرة.

لا بد أن نشير إلى صلاح العالم المادي المخلوق، فلا ازدواجية، أو ثنائية، في المسيحية. لا يوجد تعليم يقول ان الروح «جيد» والمادة «سيئة»، وان السماء «جيدة» والأرض «سيئة». كل ما خلقه الله كان حسناً، بل وحسناً جداً. فالله أحب ويحب خليقته كلها بمحبته الأزلية، حتى عندما أخطأت الخليقة لم يدعها بل عمل كل شيء ليخلّصها. الله ساكن في كل خليقته ونستطيع أن نتلمسه ونختبره من خلالها كما شرحنا في السابق. والخليقة تحيا وتتحرك بالله كما يقول الرسول بولس لأهل أثينا: «الإله الذي خلق العالم وكل ما فيه، هذا إذ هو رب السماء والأرض... إذ هو يعطي الجميع حياة ونفساً وكل شيء. وصنع من دمٍ واحد كل أمة من الناس يسكنون على كل وجه الأرض وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم لكي يطلبوا الله لعلَّهم يتلمسونه فيجدوه مع انه عن كل واحد منا ليس

بعيداً. لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد. كما قال بعض شعرائكم أيضاً لأننا أيضاً ذريته» (أعمال ١٧: ٢٤-٢٨).

يبقى السؤال الأخير: لماذا خلق الله العالم؟ عندما يعلن الله ان ما خلقه كان «حسناً جداً» هذا يعني انه كان مسروراً جداً بخليقته. لقد سرّ الله بخليقته حتى انه خلق الإنسان على صورته ومثاله «فيتسلّطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض» (تكوين ١:٢٦). أعطى الله الإنسان أن يشاطره السلطان على الأرض وكل ما فيها، أي أعطاه أن يشاركه في ما هو له، ونفخ فيه «نسمة حياة» (تكوين ٢:٧) منه.

السؤال يبقى: ألم يكن الله مكتفياً بذاته؟ لماذا الحاجة إلى العالم والكون؟ هل يحتاجنا؟ نحن نبني المنازل لنعيش فيها ونقتني السيارات لتنقلنا. هل هذا يعني ان الله خلقنا والعالم لأنه بحاجة لنا. حاشى. فالله لا حاجة له لشيء. لقد كتب صاحب المزامير «يا نفسي أنت قلتِ للرب انك إلهي، ولست بحاجة إلى صلاحي» (مز ١٦:٢). لقد خلق الله العالم بسبب محبته. لقد خلق الإنسان ليشاركه في مجده وفرحه وبركاته. الله غير أناني، ويريد أن يكون كل ما له لخليقته حتى تستمتع به. حتى انه لا يبتغي تمجيداً من الخليقة، يكفيه فقط أن تشترك الخليقة في مجده. والبرهان على انه لا يبتغي مجداً، أنه أرسل في الزمان المناسب ابنه الوحيد ليفتدي كل البشر الذين ابتعدوا عنه وخانوا محبته، أي ان محبته لا حدود لها. لم يبخل على البشر حتى بابنه، فكيف يكون هو الإله الأناني الذي يبتغي مجد ذاته فقط؟ إنه الإله المحب الخالق الذي يريد أن يخلص الجميع ويشاركوه في ملكوته ويتنعموا بالفرح الأبدي. المحبة عطاء. ولأن «الله محبة» (١ يو ٤: ٨) خلق الإنسان ليشاركه إبداعاته في هذا الكون.

+ تأمل

إذ كان الرسول بولس جاهلاً لله، اضطهده، لكنه عندما عرفه، جال العالم كلّه مبشّراً بالمسيح.

إذا لم يعرّفنا السيّد بالروح القدس كم يحبّنا، فالإنسان لن يستطيع معرفة ذلك لأنه من الصعب على الذكاء البشري المادّي أن يفهم، بواسطة الكتب وحدها، ماهية حب الرب للبشر.

حتى نخلص علينا أن نتّضع، لأننا إذا أدخلنا إنساناً متكبّراً بالقوة إلى السماء، فإنه حتى هناك لن يلقى راحة، وسيبقى غير راضٍ وسيقول: «لماذا ليس لي المكان الأول؟». إن النفس المتواضعة ممتلئة حباً ولا تبحث عن أن تكون في المكان الأول، لكنها ترجو الخير لكل الناس وتفرح وترضى بكل شيء.

الإنسان المتكبّر، إما يخاف الشياطين أو هو على شبههم. لكن يجب أن لا يخاف من الشياطين، بل من الكبرياء والأنانية، لأنهما يفقداننا النعمة.

إن الذين يخاطبون الشياطين يلوّثون نفوسهم، أما النفس التي تسكن في الصلاة فإنها تكون مستنيرة بالسيّد.

السيّد يحبّنا؛ ومع ذلك نسقط لأنه ليس لدينا التواضع الكافي. فحتى نحافظ على الاتضاع علينا أن نميت الجسد وأن نستقبل روح المسيح فينا. إن القدّيسين شنّوا حرباً ضروساً على الشياطين، وغلبوهم بالتواضع وبالصلاة والصوم.

إن الذي يعرف كيف يتواضع يغلب الأعداء.

ماذا علينا أن نفعل حتى نحصل على سلام النفس والجسد؟ أن نحب كل البشر مثل أنفسنا، وأن نكون، في كل ساعة، حاضرين لكي نموت. عندما تتذكر النفس الموت تتّضع وتسلم ذاتها بالكليّة إلى مشيئة الله فتتوق لكي تكون في سلام مع الجميع وأن تحب الجميع.

عندما يحلّ سلام المسيح في نفس ما، تفرح بأن تجلس مثل أيّوب، في مزبلة، وأن ترى الآخرين في المجد؛ هكذا تفرح النفس بأن تكون هي الأسوأ. إن سر غور هذا التواضع، تواضع المسيح، لعظيم وليس ممكناً إفهامه للآخرين. فالنفس تتمنى، بدافع الحب، الخيرَ لكل إنسان أكثر مما تتمناه لنفسها، وتفرح وتتهلّل عندما ترى الآخرين في وضع أفضل منها، لكنها تحزن إذ تراهم يتعذّبون.

صلّوا لأجلي، يا جميع القدّيسين ويا كل شعوب الأرض، حتى ينسكب عليّ تواضع المسيح.

إن السيّد يحب البشر، لكنه يسمح بأن يُضربوا بالتجارب حتى يعرفوا ضعفهم وعجزهم، وبفضل تواضعهم يتلقون نعمة الروح القدس. وبحلول الروح القدس يصير كل شيء حسناً، فتمتلئ النفس بالفرح، والكل يتصبح رائعاً.

إذا جُرّب إنسان كثيراً بالفقر أو بالمرض ولم يتّضع، فإنه يتعب بدون مقابل؛ بينما يتعزى المتواضعون ويكتفون بكل شيء، مهما كان، لأن المسيح السيّد هو غناهم وفرحهم، ويحلّ عليهم الدهش من جمال روحه.

أنت تقول: «إن حياتي كلّها عذاب»، لكني أجيبك، بل بـــالأحرى المســيح نفسه يقول لك: «إتضع، وسترى أن التجارب التي تمر بها ستتحوّل إلـــى ســلام وراحة»، لدرجة أنك أنت نفسك ستندهش وستقول: «لماذا أتعذب وأحزن هكـــذا؟». إنك الآن سعيد لأنك صرت متواضعاً والنعمة الإلهيـــة وافتـــك، والآن، إذ تكـــون وحدك في الفقر، فالفرح لن يتركك، لأن نفسك ستكون مملوءة بهذا السلام الـــذي يقول عنه السيّد المسيح: «سلامي أعطيكم». وهكذا يمنح السيّد المسيح سلامه لكـــل نفس متواضعة.

القديس سلوان الآثوسي